شيطان بنتؤور

المحادثة الثامنة

حدثنا الهدهد المسحور، الدخيل فى الطيور، كحال ذلك الناطق فى النسور، السابق فى المنظوم والمنثور، وماهو الابنتاؤور، شاعر القدم المشهور، الخالد ذكره مع الدهور. أنشر شيطانه، وبعث بيانه، أم أرجع للناس زمانه.

قال لما كان الغد وأزف الأصيل خرجت الى منف المنبعثة بقوة الخيال المتمثلة كما كانت فى العصر الخالى اذ المالك رمسيس المعظم ذو الجلال واذ الملك فى ذروة السعد وأوج الكمال، فبلغتها وأنا حيران لا أدرى على أى أبواب القصر ألقى النسر، لانها متفرقة كثر

وقد تقدم القول بان الدار الفرعونية تكاد تكون تلك المدينة من التناهى فى السعة وكثرة المشتملات وتمدد الاطراف لكل زوجة فيها اجنية منصوصة وافية بها مخصوصة وما أكثر الزوجات ولكل ولد غرف منفصلة ومقاصير منعزلة، والملك كثير البنين والبنات ولا تسل عن الحاشية وكثرتهم وما يلزم لهم من مساكن تختلف باختلاف منازلهم فى القصر وتتفاوت بتفاوت مواقفهم فى الخدمة وفى الدار منهم آلاف يؤدون الخدم المتنوعة ويمارسون الصناعات المختلفة وبالجملة فالقصر السلطانى من امتداد البنيان وسعة الجوانب والاركان بحيث لا تحصى أبوابه ولا يغنى أحدها عن سائرها

فحين انتهيت اليه ولجته من الباب الذى دخلناه بالأمس وحينئذ ذكرت ان الساعة ساعة الدرس وأنى ربما لقيت الاستاذ فى مقر الامير أو فى فاحتلت حتى دخلت على الامير فى غرفة جلوسه فلا والله ما عللت النفس بكذاب ولا اوردتها السراب بل اذا أنا بالامير وجمع من إخوته وكبار الاتباع قد داروا كالحلقة بالنسر وهو فى سرتها يتلطف لهم فى التعليم ويخلط المفاكهة والتدريس فوثبت الى رفرف هناك فحططت فوقه وأنا مسرور بما وجدت قرير بما شهدت ثم القيت السمع فسمعت الاستاذ يقول :-

والذى يميز علماء هذه الامة على غيرهم ويجرى بهم الى الغايات ويكفل لهم السبق ويجعلهم اساتذة وقتهم ومصابيح عصرهم أنهم يطلبون العلم لذاته ثم لانفسهم ثم للاحاديث

من بعدهم وهذه الثلاثة ماقامت بنفس طالب علم ورزق الحجي والذكاء وفسحة الاجل إلا نبغ في حياته ثم جاوز ذلك الى رتبة الخلود بالذكر بعد مماته فيا أيها الامراء ومن يلوذ بهم من الخواص والكبراء من احب منكم العلم حبا صادقا وطلبه لذاته فليأخذه مني ومن حضر منكم مجلسي هذا وهو فارغ الفؤاد من حب العلم عين ساهية واذن لاهية وجسم في ناحية وقلب في ناحية فليأخذ العلم من غيري

قال الهدهد فرايت وما اعجب مارأيت رأيت اكثر الحضور انسلوا من المجلس فدهشت لهذا الصدق واستغربت من القوم هذا الرجوع في الضمير الى الحق وذكرت مجالس من هذا القبيل يعقدها بعض الكبراء في مصر تظاهراً بمحبة العلم ويتصدر فيها للتدريس عبادة الشهر من العلماء ويحضرها البعض رياء وتملقا ثم استمر النسر فقال :

محب العلم يطلبه لذاته وهذا أول التوفيق في طريق التحصيل وسبب النجاح الاوثق لان النفس حيث رضاها وحيث يجعلها هواها ومن رضيت نفسه بالعلم قسما من أول يوم وامتلأ فؤاده من حبه أقبل عليه وضن به وانقطع له والقى التعب راحة في تحصيله واستوى عنده السلامة والعطب في سبيله ثم لايلبث العلم ان يعرفه قدر نفسه وأنه ماخلق في هذا التقويم سدى ولاساد نوعه على هذا الوجود عبثا فتأخذه من ذلك عزة بالحق وتنزل نفسه في عينه منزلته الحقيقية فيطلب العلم لها ويستكثر منه لأجلها ويجرى فيه الى الغايات في سبيلها لما استقر عنده من أن العلم يحيي النفوس ويهذبها ويطلعها على الحياة وأسرارها ويوصلها الى كنه أغوارها ويسهل له محياها ويهون عليها الفواجع في دنياها وهذه هي المنزلة الثانية في العلم يقف عندها سواد العلماء ولايجاوزها الا احاد يسخرهم الآلهة بهذا الوجود فيعملون فيه العمل العظيم ثم يموتون عن تراث في الفضل جسيم ، من بنيان يخلدون ، أو حكمة يؤيدون ، أو مجد يشيدون أو فن يجيدون وهذه هي رتبة الامتياز بالاختراع ولايقال عن أمة انها بحياة ولها وجدان حتى يبلغ أفراد من بنيها هذه الرتبة ولئن كان العلماء في الارض عدد ماعرف من النجوم في السماء فهذا الفريق منهم كالكواكب التي لم تعرف بعد يكتشف منها واحد على رأس كل مائة وأنهم لاجل منها وأنفع في الوجود وأهدى للناس ومابلغ بعض العلماء الى هذه الرتبة العليا والمنزلة العظمى الا ترقبهم في عرفان قيمة النفس ومغالاتهم بها واعتقادهم انها لاتغني وأنها أجل ماهية وأعظم شأنا من أن تحصر بأيام

الحياة القلائل ولئن تحتم أن تخرج يوما مامن هذا الهيكل الزائل فلها من جميل الذكر ومحامد الأحاديث هيكل خالد فاخر يتجلى فى الخواطر ولاتراه النواظر ولا يتأثر به مكان دون مكان و يتوارثه الدهر زمانا عن زمان

قال الهدهد ثم التفت الاستاذ الى الامير وكان الدرس قد طال فاذن له فى الامساك فامسك وتحفز للقيام فطرت الى كتفه فنهضت فيه وأنا حسران على مافاتنى من أوائل درسه حتى اذا انصرفنا من حضرة الأمير التفت الى وقال كيف وجدت مجلسنا أيها الهدهد قلت استطبته يامولاى وان حضرت فى آخره واستدللت بهذه الحبة من العنقود على سائره

قال لنا تلميذ فى القصر نتعلم منه أحياناً ونزداد ، كلما حدثنا علما و بيانا فهل لك فى زيارته الساعة. قلت الأمر اليك يامولاى فسار النسر بى يخترق وسيعات الدور ويجتاز شاهقات القصور وهو يعينها لى واحدا بعد واحد و يسمى أهلها ويصف مافيها حتى أفضينا الى قصر لايبلغ البصر ذروته ولايدرك سعته فقال هذه مساكن الملك خاصة ونحن قادمون عليها

ثم وصل سيره بين رياض ناضرة و حدائق زاهرة وسوح وسيعة و اسوار رفيعة ومقاصير كالغيد الحسان تموج بالجوارى والغلمان الى أن بلغنا احدى الغرف وكان على بابها غلامان يحرسانها فوقف الاستاذ ثم سأل أحدهما أين نحوت فاجابه فى غرفة الكتابة يامولاى ، قال اذهب فاستأذن لنا عليه فدخل الغلام يؤدى الرسالة و التفت النسر الى فقال رأيت جميع الفواجىء فلم أر أثقل على الانسان من مفاجىء فى ساعة الكتابة وقد استأذناه فلعل نحوت يأذن لنا وما كاد يستتم حتى خرج الينا فتى مليح الطلعة حسن الزى ترى دلائل الذكاء على جبينه الوضاء فانحنى بين يدى الاستاذ وقال زارنا خير من نحب ونكرم يامولاى ثم أخذ بيده فدخلا وهو ينظر الى ويقول للنسر العله هدهدك السحرى الذى شاع ذكره فى المدينة يامولاى وليس بمستنكر على من سحر البشر أن يسحر الهداهد

قال كيف أنت والملك يانحوت قال أفضل مولى هو ، فنى أن أكون أصدق عبد يحبنى كبعض ولده و يثق بى كبعض قدماء أصحابه و يؤدبنى بالاشارة الخافية والحكمة العالية والنصيحة الغالية قال هكذا عهدناه اذا صادق أعز واذا عاد أذل و اذا أحب بلغت به

المعة واذا وثق لايرجع عن الثقة . ثم جلسا الصاحبان وطاف عليهما الغلام بشيء من عتيق النبيذ فسأل الاستاذ صديقه الفتى من أى القرون هذا المعتق يانحوت قال مايضن به الملك يامولاى ولايوجد الا فى خوابيه وقد أمر صاحب شرابه أن يملأ دنا منه كلما فرغت وسبب ذلك أن جلالته نزل مرة الى أن ناولنى منه شيئاً بيده المقدسة فدعوت له ثم قلت أيها الملك المعبود كانت حلب العنقود فصارت بسرك حلب الخلود من يذوق منها لايخرج من الوجود . فمن لى بها تتجلى فى كأس لاتفنى ولا تمتلىء أذوقها بلسان رطب عليك ثناء واشربها بفم يملوه لك دعاء فسر الملك بهذه الكلمة فى شكره وكان ما كان من أمره قال هكذا الملوك العظماء يحتالون على الثناء ويأخذونه من عبادهم الأمناء والآن ائذن لنا يانحوت ان سألناك ماذا تكتب قال ولم يامولاى وما كتبت فى عمرى حرفا الا عرضته عليك ثم مشى الفتى الى منصة الكتابة وكانت عليها رسالة من انشائه جف مدادها أو كاد فاخذها ثم دفعها الى النسر وهو يقول هذه رسالة منى الى أخى أحد جنود الملك فى أسطول البحر الاحمر أشكر فيها من بطء مكاتبته على وأبشره بمنزلتى الجديدة فى الخدمة الشريفة وأصف له بعض أخلاق الملك قال الاستاذ ما قرأ الكلام مثل كاتبه فخذ فأسمعنا يانحوت فتناول الفتى الرسالة ثم قرأ

« ياأخي ماشغلك عنى وأنا المشغول بك أعتنى بأمرك وأسأل عن خبرك واذكرك فى السر والعلانية ، أفزع بالشكوى من هذا الجفاء ، الى شيمتك الوفاء . ام أعوذ بهور وس حامى حمى الثغور ومسير تلك الاساطيل كالجبال فى البحور أن يكون بين جنده من ينس الصديق وينام عن عهده وقد عرفت نفوسهم بالوفاء كما وصفت بالنخوة والاباء . ولئن أخذت بقسط من العزة التى هى لجنود الملك بالحق فانها لكم جماعة الجند ولنا معشر الحاشية وماسوانا من الناس فاشباه إلا من حسب على رفيع ذلك الجاه ، ولعله نمى اليك أنى ازددت من حظوة واستفدت فى سبل الفخار خطوة فجعلت على ملابس الملك أنشرها وأطويها وعلى جواهره أسهل على حفظ غاليها وقد أشفقت من الامر فى أوله وحملته وأنا أعلم أنه جسيم وأنى قادم على ملك تام المهابة عظيم ، فلا والآلهة ونعمائهم وآباء الملك وسنائهم ما سمعت كحديثه ولا آنست كبشره ولا رأيت كحلمه ولا عرفت أقل

اعترارا بالدنيا منه ولاأكثر ذكرا بالآخرة اذا دخلت عليه بثياب الملك قال ما هذى العوارى يانحوت واذا حملت اليه التاج قال البسنى يانحوت فلا تمس يدى شيئا يخرج منهاغدا. وسألنى جلالته مرة ما أجمل الثياب يانحوت فقلت ماتجمل بالملك قال كذبت أجلها ما لبس الفقير بعد الغنى وثيابى لا تصلح لفقير بعدى فمر صناع لباسى أن لاينقشوا رموز الملك على جميعه وأن يبصروا ذلك على ماأتخذ منه فى المحافل .وطلب خاتما له من بحر الف خاتم فى الخزانة فتشابهت على فابطأت ولم أجسر على مخاطبته فلم أدر إلابه عند رأسى وأنا فى البحث عن طلبه فتبسم ثم قال الخاتم لك ان وجدته يانحوت فأطرقت هنيهة ثم قلت فى البحار يامولاى مليكة اللؤلؤ التى لم يهتد لها الملوك حتى الآن وهى لجلالة الملك ان وجدها. فاستضحك ثم قلب طرفه فى الخزانة حتى عرف الخاتم فقال هو ذا الخاتم فخذه فهو لك يانحوت فقبلت الارض بين يديه شكرا لانعمه ثم تحول عنى فسمعته يقول أى: آمون جنبنى الغضب وأدبنى أحسن الادب واجعلني من يثيب لسبب ويعاقب لسبب. وحسدنى حاسد على منزلتى الجديدة فى خدمة الملك فوشى بى عند جلالته وقال عنى أنى أذيع كلماته وأنقل مايدور بيننا من الحديث

فقال له الملك أنا أعلم بما أقول وليس فى كلمى مايريب فاكره أن يضل عبادى. ثم امر بالواشى فطرد من خدمته وقال الملوك اثنان ملك أذنه للمظالم وهذا سيد الاكارم وآخر أذنه للمآثم وهذا عبد الآلائم. ورمانى أحدهم عند جلالته بأنى كثير الحلف بحياته وهذا كما تعلم محرم على العامة مكروه صدوره عن الخاصة فقال رجل عيشه بعيش ولايثق بصفو الحياة بعدى له الف عذر أن يحلف بآبائى ثم أردف بأن قال للواشى ونحن معشر الملوك احوج الى من تخلص لنا سرائره منا الى من يرضينا ظاهره نلقى إجلال الناس حيث ملنا ولا نثق بحبهم لنا

هذا قليل من كثير من كالات الملك التى اختصه بها آباؤه وبودى نلتقى على خلوة تطول لاحدثك عن جلالته فتقول زدنى من حديثك ولتعلم أنه ملك الملوك يقينا ولو نظر اليه عاطلا من ابهة الملك وعظمة السلطان وأن جنوده ملوك الجنود فحسبنا شرفا ما أنت فيه يا أخى من اعزاز لوائه والاعتزاز به وحماية سفنه والاحتماء بها والحياة فى ظل ملكه والموت دون شرفه الرفيع

قال الهدهد وما كاد نحوت يفرغ من قراءة رسالته حتى تثاءب النسر والتفت الى مثقل الحفنين بالنعاس فقال اذا جاء الليل ذهبت الشياطين فالقنى غدا فى دار الاعمى « بسادر » فخرجت من صفو تلك الاحلام الى كدر اليقظة بين هذا الانام

***

المحادثة التاسعة

قال الهدهد فلما كان اليوم التالى قضيت النهار فى كد وكدح وتعب حياة . وأشغال الدنيا طالبها حائم . على ماء دائم . وليته دائم . الى ان كان أوان الموعد فطرت الى منف وأنا لاأستطيع للغيظ كظما . ولا أملك فى أمر النسر حكما . ولاأظن أنى سأهدى إلى ذلك الأعمى . فلما بلغت بناء (منا) الدائم . وقدمت الى المدن القدائم ، نظرت اليها نظرة مرتاح . وقمت لديها على جناح . وقلت فى نفسى صفحا للنسر من هفواته . اذ كان هذا المنظر من حسناته . وهكذا الانسان ينسى و يذكر . ويكفر احيانا و يشكر . ثم فكرت فى الأعمى وداره ، وما يقتضينى النسر من مزاره . فسألت نفسى من ياترى الرجل حتى يزوره النسر وأى العميان هو فهم كثر ، تراه شمشون فى الهيكل انبعث ، أم المعرى قام بين الجدث ، أم يعقوب ابيضت عيناه ، من الحزن على فتاه ، أم بشار بن برد قام من اللحد . أم أبو العباس الاعمى ، أم دريد ابن الصمة . أم الخليفة القادر فى أيام محنته . أم حسان بن ثابت فى آخر مدته . أم الشطبى . أم طوبيا النبى . أم هومير الشاعر اليونانى . أم ملتون الشاعر الانجليزى ، أم مرصفى هذا الزمان . صاحب الوسيلة والكلم الثمان . وأول من علم الهدهد البيان . أم داود الاكمه أم ابن سيدة أم الطليطلى أم أكمه المسيح أم أعمى عبس أم الاعمى الذى قتل البصير فى هذا الزمن الاخير ولم يبق أعمى فى الزمن الغابر الامر ذكره بالخاطر ثم قلت لعلها نعمية شاعر والرجل من عمى البصائر فتشابه البقر على عندئذ وقلت لعله أحد الغز الذين آمنوا لمحمد على واتظموا فى تلك الصفوف ، فلاقوا فى القلعة الحتوف . أوعساه زعيم الثورة المشئومة . أومعاكس أفكاره يومئذ فى الحكومة . أو هو دلتكل بينما تخيل ثم خال . من هد بنيان الاحتلال . بامثال أولئك الرجال او كر وجر فى بلدان الغرب لافى ميدان الحرب يظن أن الاقوام منقذرة

من الكرب أو أحد سفراء الدول فى بكين منذ اتفقوا على الثقة بالصين أو من هؤلاء المتهوسين فى البلاد . الذين يطلبون حق السلطان مراد، وآونة يبايعون من شاؤا من العباد ويريدون من عبد الحميد وهو الذى لايجرى فى ملكه الاماأراد أن يصبح كهذا الذى قال عن نفسه وأجاد .

أليس من العجائب أن مثلى يرى ماقل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شىء فى يديه

(قال الهدهد) ولو أردت أن أحصى عمى البصائر على ذكر الأعمى بسادر لما استطعت أن أحصى نصف الناس على اختلاف الأصناف والاجناس . فبينما أنا مفكر حائر ماض فى الجو طائر . اذ طاف بى من الجوارح طائف . فلم أدر الا وأنا بين جناحى خاطف وهو ينظر الى مبتسما . يقول لقد أتعبنا الهدهد بالانتظار قلت وبذلك الاعمى فى تلك الدار . قال أما الاعمى فرمسيس رب هذا الملك و بانى هذه الدولة ، عمى اذ بلغ به الكبر : فكانت هذه أبلغ العبر . وأما بسادر فمن الاسماء الدائرة وإنما رميت باستعارته له الى أن الدهر قد حكم فيه فصار كبعض الناس قلت يا أسفا على ذلك الوعد ويا حسرتا على تلك الامنية لقد اخطأنى ماأملت من القدوم عليه وفاتنى مارجوت من النظر اليه قال ستجده ابصر فى العمى وأسمع فى الصمم وتلقيه متلبساً بلباس الفتوة فى الهرم فتعلم انى استأذنت لك عليه وهو على عظمة من قوة الوجدان تعدل ماأبلغ اليه من عظمة الملك والسلطان

وصاحب لى أعمى فداؤه المبصرونا
يريك فى كل قول وكل فعل عيونا

(قال الهدهد) فقبلت حكم النسر ورضيت بهذا القسم النزر . وقلت قد آن ان ينجز مولاى وعده . افانى اخاف الا أرى رمسيس بعده اذ مابعد العمى والصمم وتبالغ الهرم . الا محتوم العدم . فاستضحك الاستاذ ثم قال الآن تقدم عليه فاذا أقامك فى الخطاب فبالغ له فى التحية وشبهه بكل قوى فى الارض والسماء عظيم فى الغبراء والزرقاء واتبع فى مدحته سنتنا معشر الشعراء من المصريين القدماء وقل فى قاهر الامم من الآريين كما قلت فى قاهر اليونانيين

أمولاى غنتك السيوف فاطربت فهل ليراعى أن يغنى فيطرب
فمندى كما عند الظبى لك نغمة ومختلف الانغام للانس أجلب

فان الملك وان أشرق وجه الارض من ثنائه وامتلأ فم الدنيا من مدحته . وسيرت ذكره الاشعار . وبزت أعماله الفائلين وتكاثرت مناقبة على الناظمين فما زال يهزه المزاح وما انفك يطرب للاطراء ويرتاح . قلت ستجدنى يامولاى من المحسنين وعند ذلك حملنى النسر الى القصر فدخلنا حجرة ليس أجمل منها فى الناظر ، ولا أجل منها فى الخاطر فى وسطها سرير فاخر ، وهو يزهو بالجواهر . منضودة من الخشب النادر اضطجع فيه رجل يقضى من مهابته ولا تثبت النفس ازاء جلالته ، حفظ الزمن القضاضة على وجهه النقى من الشعر ، وعلا التاج منه رأساً ملء التاج وهو كالتمثال له عينان ولا يبصر وكان النسر قد تمثل بشرا سويا ، واستأذن فى الوصول فاستقدمه الملك فحين نقل القدم فى الحجرة العالية استقبل مولاه مستجمعا من الخشوع غاضا من بصره من المهابة ثم قال: سلام من هوروس اليه . سلام الآباء والاجداد عليه ، أيتها الشمس المضطجعة فى سرير مجدها وضوؤها يغشى البلاد . ويبعث حياة للعباد . هذا هدهد ناطق ، انفرد فى الآخرين بتقديس ذاتك . والتمدح بصفاتك . والبكاء بعدك على رفاتك ، فاستحق أن يحسب على التفاتك

قال الملك لعله هدهدك السحرى يابنتور . قال كذلك لقبوه فى المدينة يامولاى . فالتفت رمسيس إلى كأنه يرانى وقال ماذا يقال عنا أيها الهدهد فى زمنكم النكد وأيامكم السوء وعهدكم النكر وسنيكم العجاف وماذا يعلم عنا ذلك الجيل الصغير والجمع المتفرق والعقد المتمزق والنسل الذى سمونا بالبناء والحجر ، ولم نسم به فى يوم مفتخر؟

(قال الهدهد) فعجبت من حرص الملك على ذكره من بعده وكيف أنه قدم هذا الامر على غيره فى ابتداء الحديث وعلمت أن حب تخليد الذكر وهو رأس المطالب العالية لا يتأسس بناء فى المجد الا به ولا تقوم شهرة ثابتة راسخة الا عليه وحررت فلم ادر كيف اجيب أأصدق الملك فأقول له إن القوم ضيعوا عهدكم واغفلوا ذكركم وجادوا للاجانب بكثيرما تركتم واتخذوا منها النياشين واستخدموا منهم الكشافين واستقدموا منهم العلماء الباحثين ، أم أكذبه فامدحه وأطريه وأعلى ذكره واغلبه

وكان الاستاذ قد نظر الى نظرة مغضب كأنه ينهانى عن التردد فأنشدت

زمسيس ياكل الملو ك ويا جميع العالم
يفدى سليل الشمس كـ ل مسلسل من آدم

والتفت الى النسر فرأيته يتهلل فعلمت أن قولى أرضاه وان الالفاظ جرت على هواه. فاردفت بان قلت علمت الارض يامولاى انك خير من ملكها، واحرى من سلكها وأفضل من تركها وعلم الاحياء انك كنت كالفلك لاتسكن وكالمنية لاتدفع وكالصخرة لاتستخف وكالسماء لاتطاول وكالدهر لاتنام وكالنجم لا تعيى وكالسيف لاتروى وكالدنيا لا تكره وكالحياة لاتمل وكالصبح لاتخفى وكالشمس لاتستزاد وكالهم لاترد وكالبحر لاتزحم وكالذهب لاتراب وكالليث لاتهاب وكالطبيب لاتكتم وكالنار لاتدنس وكالعارض لاتعارض وكالريح لاتسابق وكالطود لاتصارم وكالماء لاتغوض وكالهواء لاتستبدل وكالحق لاتغلب وكالسعادة لاتعادل وكالسلامة لاتفاضل وكالبدر لاتواسم. وكالليل لايدرى ماتأتى

(قال الهدهد) وخالست الملك وجلساءه النظر فوجدتهم منصتين لما ازخرف من الثناء ورأيت النسر يزداد تهللا فشجعنى ذلك على متابعة الخطاب فقلت وعلموا يامولاى عن حسابك انك ملكت الدنيا. فى رؤيا قبل أن تولد وان تحيى. ثم ما جاوزت العاشرة حتى كان الملك بيدك. والايام من جندك. والخير والشر من عندك. فكنت فى ذاك الصبا الغض والعمر النضير. وهذا الامر النافذ والملك الكبير. مثال الملوك المحتذين فى كرم الخلال وحسن الأخلاق يأخذ الكهول منك العلم. ويتعلم الشيوخ منك الحلم. وتغلب النفس على شيمتها الظلم. وتركب الحرب الى السلم. هنا أطرق الملك هنيهة ثم رفع رأسه وأشار بوجهه نحو أصحابه وقال أتذكرون اذ أزجى الجيوش وأنا طفل واذ مثلونى التاج فوق رأسى وأصبعى فى فمى الوكها كما يفعل الصبيان. اتذكرون اذ لبست التاج فى الهيكل الطيبى. وأنا صبى. كالشبل الليبى. من رآنى قال لن يكبر هذا ولن يعمى ولن يهلك أبدا. اتذكرون اذ نحن صغار، نصارع بالنهار، وحوش القفار واذ تجمعنا بالليل والعلماء المسامر، نأخذ من علمهم وآدابهم ونتلقى عليهم الدروس النافعة؟ أتذكرون اذ أسير فى الأرض فى

سبعمائة ألف مقاتل وآونه أركب البحر فى عدد أمواجه من سفن القتال فملكت المعمور من أنريقيا و أخضعت المسكون من آسيا و نشرت أعلامى على الامم و الشعوب و ملأت من آثارى الشعاب و الدروب فلا جبل ألا لى فيه أثر و لا قمة الا لى عليها حجر . قال بتاؤور تذكر ذلك كله ونعلم أنه لم ينل ملك مانلت من صنوف السعادة ولا أوتى بشر ما أوتيت من بسطة الملك وامتداد السيارة . قال لكن وددنا لو خلقت ابن راع أو احد الزراع فى بعض الضياع وأنى لم أعرف الملك و لم أنل من معاليه مانلت . ذلك من اجل حادثة وقعت فى حرب أمه الخيتاس اذا ذكرتها و أنا فى غاية السرور انقلب سرورى انقباضا وترحة واذا خطرت على البال وأنا فى ذروة المجد وأوج العظمة صغرت نفسى فى عينى واحتقرت فى خاطرى واستحييت من الشمس أن القاها بوجهى وهى الملك المسوى القسم بين الأحياء المنعم لهم بالحياة على السواء و حديث تلك الحادثة :

انى احرجت العدو يوم ذاك بعد أن أتم الآلهة الى النصرة عليه فانساق بين يدى شيوخا و نساء وأطفالا وأنا اطاردهم وحدى فأيدهم بمركبتى تارة و بسهامى أخرى حتى صادفوا فى طريقهم غابة فاستعصموا فولجتها عليهم و جعلت أصطادهم فى أعالى الاشجار كما تصطاد الطير فى الاوكار غير راث لحالهم ولا راحم ضعفاهم وكان فوق شجرة هناك رجل شيخ أعمى قد تسلقها وجد به حب الحياة فعانقها فرميته بسهم فأصابه فصرخ قائلا

« اعمى أصاب أعمى يارمسيس » ثم سقط يتخبط فى دمه فامتنعت من فورى عن متابعة الفتك و مواصلة البطش وكانت نجاة للبقية الباقية من أولئك الفارين الضعفاء على لسان ذلك الشيخ الاعمى الذى ما وعظنى مذكنت غيره ولا عرفنى قدر نفسى سواه والآن أحس كأن السهم رد الى مرسله وان ذلك الاعمى اصاب هذا الأعمى فيا أيها المعمرون بعد لا تغرنكم الأيام وانقوا سهام الانتقام . ثم حول الملك وجهه الى وقال .

و أنت ياصاحب النسر وشيطان الشعر فى عصر غير هذا العصر، اعلم ان المجدد العظيم فى الدول والامم ينتهيان الى بناة الفسطاط. و انهم خير من ورث النيل بعدى

ظلمت و عدلوا ، و تطرفت و اعتدلوا . و أسرت و أطلقوا واستعبدت واعتقوا و خلدت بعدى الحجر وخلدوا بعدهم السير ذهبت الديانات ودينهم هو الدائم و بادت اللغات ولسانهم فى مصر قائم و أستبدت كل أمة فى وادى النيل ، وذكرهم فيه سالم جميل ، و شقي الغريب فيه بغيرهم ، و غمر من أول يوم بخيرهم واستوى السوقة و الملك على عهدهم وما تساويا من قبلهم ولا من بعدهم ، و تكافأ فى مصر الخليفة و العامل ، حتى لا أدرى أيها الرجل العادل ، و الانسان الكامل وان الذى استنزل روحى من عالم الراحة الكبرى بعد ثلاثين قرنا أو تزيد و سلط على من روحه ما يوجد العديم و يبعث الرحيم وحازلك الدول منذ التأسيس و الملوك من مينا الى اناريس فى منفيس على عهد رمسيس لقادر على أن يريك الفسطاط و اهلها و يشهدك تلك الدول و عدلها وأمة العرب وفضلها حتى اذا قستها بمن قبلها قضيت عليها أولها

(قال الهدهد) فخشيت أن تنقضى الرؤيا و لما اظفر من ملك الملوك بموعظة . فقلت أيها الملك ان بيننا لرحما مبلولة لم تيبس و انك لمجد هذه الأمة أولا واخيرا فهل نصيحة عالية نسمعها منك أو موعظة غالية نحفظها عنك . قال عليكم بالاقدام فانه مفتاح الغنى و الطريق المختصر الى العليا . و السلاح الامضى فى معترك الاحياء به سدت وعليه اعتمدت فيما اسست و شدت و انه ليخرج أصحابه من غمار العامة الى عليا مراتب الملوك و من هون الخمول الى العز و السؤدد و الذكر الجميل . و لو لم اكن ابن (سيتى) وعنه ورثت ملك الدنيا لملكتها بالاقدام قلت زودنا منعمايا يامولاى . قال فارموا الظالم و لا يغرنكم ما ترون من قوته و بأسه فمثله كالأسد لا يزال يفترس حتى تفترسه نهمته . قلت الثالثة يامولاى ولا ازيد . قال احفظوا أنفسكم ثم ضيعوا ماشئتم

(قال الهدهد) و عندئذ تثاءب النسر فتثاءب الملك واصحابه على اثره . فالتفت الى الاستاذ فرأيته يغالب الكرى وسمعته يقول كلمة المعتادة اذا جاء الليل ذهبت الشياطين . فاذا كان أصيل الغد فالقنى على « المعاهد » وعند ذلك تبدل الزمان و المكان فخرجت من مسك الشيطان و دخلت فى صورة انسان و قد ضمنى مبيتى بحلوان .